الهـــدف الأدبى

للدكتور زكى مبارك

[فى الاحتفال الذى أقيم بدار الجمعية الجغرافية لافتتاح الموسم الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ألقيت ثلاث خطب فى تحديد أهداف الموسم : خطبة الدكتور منصور بك فهمى فى الهدف الروحى ، وخطبة الدكتور حسن إبراهيم فى الهدف الاجتماعى ، وخطبة الدكتور زكى مبارك فى الهدف الأدبى . وحال مرض الدكتور عبد الوهاب عزام دون خطبته فى الهدف العلمى]

هذه فاتحة الموسم الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ، والجامعة أول مظهر من إرادة الأمة فى العصر الحديث ، فقد أنشأتها الأمة قبل أن تفكر فيها الحكومة ، والأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها الحيوية الروحية والعقلية . وقد كان من أثر ذلك أن صارت الجامعة منذ إنشائها إلى اليوم مثابةً لحرية الفكر والرأى . ولعلكم تذكرون أنها لم تقبل الانضمام إلى الحكومة إلا بعد إعلان الاستقلال ، وبعد أن صارت الفكرة القومية هى التى توجه مذاهب التعليم والتثقيف إلى خير البلاد

كان الموسم الثقافى لخريجى الجامعة حُلماً يعتاد خاطرى من حين إلى حين ، وكان الرأى عندى أن ينهض به الخرّيجون المستقلون ، وأعنى بهم من لا يتصلون بالجامعة عن طريق التدريس ، لأن الجامعة أعدت هؤلاء لتثقيف الطلبة ، وأعفتهم من تثقيف الجماهير ، ولأن لبثّ الثقافة الجامعية خارج أروقة الكليات أساليب يجيدها الجامعيون المستقلون بأقوى مما يجيدها الجامعيون الرسميون ... وهل ننسى أن للتدريس قيوداً تحصر المدرس فى آفاق لا تتسع فى كل وقت لدرس ما يتصل بالمجتمع من مُعضلات لا يلتفت إليها الطلبة إلا بعد أن تكتوى أيديهم بنيران المجتمع ؟

إن الجامعى المدرس يكون فى أحسن أحواله يوم يصبح على رأى الفراء حين قال : سأموت وفى نفسى شىء من حتّى !

ومعنى ذلك أن أفضل حياة للجامعى المدرس هى الحياة التى تفرض عليه أن يكون إماماً فى تشريح الجزئيات ، عساه يصل بتلاميذه إلى تصور الكليات ، فى تواضع محبوب ينسيه وجوده الذاتى ، ويحبب إليه الرضا بحظ الجندى المجهول فى تثقيف العقول

الجامعىُّ المدرس لا يعاب عليه أن يجهل المجتمع الذى يعيش فيه ، ما دام يعرف الدقائق من العلم الذى انقطع إليه . وقد رأيت من أساتذة السوربون من يجهلون زمانهم بعض الجهل ، أو كل الجهل ، لأنهم تخصصوا فى دراسات سبقتْ زمانهم بأجيال[1] .

أما الجامعىّ المفكر فله أسلوب غير هذا الأسلوب . الجامعى المفكر يتخذ من الدراسات الجامعية موازين يزن بها ما فى المجتمع من أحلام وأوهام ، وحقائق وأباطيل . الجامعى المفكر يرى جميع العلوم وسائل لا غايات ، فالغاية الصحيحة عند الجامعى المفكر هى أن ينقل المجتمع من حال إلى أحوال فى مذاهب الفكر والمعاش . الغاية عنده هى الإبداع لا التحصيل ، الغاية عنده أن تكون آراؤه موضوعات الدرس فى الجامعات ، لا أن يكون شارحاً لآراء الناس . ومن أجل هذا اختلف المحصول الذى يَصدُر عن الجامعى المفكر والمحصول الذى يصدُر عن الجامعى المدرس ، فالأول يُبدع والثانى يشرح ، وهما فى منزلة سواء فى نظر العدل ، لأن الغرض الأصيل هو خدمة الحق بأى أسلوب وفى أى موضوع .

ومن آفات الحياة فى مصر أن يتوهم أهلها أن الفكرة الجامعية لا تتمثل إلا فى الجامعى المدرس ، وكان ذلك لأن مصر طال عهدها باحترام الوظيفة الرسمية ، فلم تعد تدرك أى قيمة للوظيفة الروحية

وقد انساق الجامعيون فى هذا المساق ، فلم نسمع أن فيهم من يحمل راية الجامعة ، وهو غير مدرس بالجامعة ، فكانت النتيجة أن يُحبَس صوت الجامعة فى حدائق الأورمان ، وأن تشعر الحواضر والأقاليم بأن الجامعة صورة من صنع الخيال

والحق أن الجامعة أرادت لأبنائها ما لم يريدوا لأنفسهم ، هى أرادت أن يكونوا مفكرين ، وهم أرادوا أن يكونوا موظفين ، وبين الإرادتين فرق بعيد

ومن أجل هذه الأسباب ضاعت محاولاتى فى خلق الموسم

(١) من أعرب ما رأيت أن المستشرق كازانوفا كان خال الذهن من آثار « تين » فى النقد الأدبى

الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ، وهو موسمٌ دعوت إليه منذ أعوام ولم أجد من يستجيب ، إلى أن لاحتْ فرصة لا يجود بها الزمان ، إلا فى أندر الأحيان

فما تلك الفرصة الذهبية ؟

رأيت جماعة من خريجى الجامعة يتشكون على صفحات الجرائد من قلة الرواتب ، فأسرعت إلى نهيهم عن هذا التشكى ، وأفهمتهم أن للجامعة رسالة غير رسالة القوت ، وأن مبدأنا أن نجوع لتشبع الأمة ، وأن نتعب لتستريح . . . وهل تعرفنا الجامعة إن صرنا طلّاب أموال ، لا عشاق آمال ؟

وسمع خريجو الجامعة صوتاً لم يسمعوه من قبل ، فدعونى لأشرح لهم رأيي ، فقلت : إنى لا أثق إلا بمن يحلفون على المصحف . فقالوا : إن اليمين لا تُطلب إلا من المرتابين ، وسترى كيف نصدُق بدون يمين

كان ذلك فى يوم جمعة من شهر رمضان ، فهل تكون الأقدار أرادت أن توقظ المعانى الروحية فى أنفس الجامعيين ، بلمحة كريمة من لمحات شهر الصيام عن الآثام ؟

أؤكد لكم أنى لم أكن أنتظر أن يتقبّل أولئك الشبان هذا الصوت بمثل ذلك القبول ، فقد ابتلتهم الأيام بعصر منحرف عن المعانى . وهل فينا من ينكر أن الموظف الذى يزيد مرتبه عن زميله خمسة قروش يعتقد أنه أرقى من ذلك الزميل ؟

البحث عن الدرجات المالية ليس من عيوب الفكرة الجامعية ، ولكنه من عيوب الحياة الديوانية . وسيذكر أبناء الجامعة واجبهم ، سيذكرون أن إنشاء الجامعة كان فى الأصل غضبة على سياسة التعليم للتوظيف ، وصاحب الوظيف وصيف ، كما يقول أهل تونس الخضراء

ما الذى يوجب أن يبحث الشاب المتخرج فى كلية التجارة أو كلية الزراعة عن وظيفة كتابية ؟

إن هذه الظاهرة تشهد بأن بعض الكليات تعجز عن رياضة أبنائها على الإيمان بما تخصصوا فيه ، إيماناً يجعلهم أقطاباً فيما تخصصوا فيه ، ويفرض عليهم أن يعينوا الدولة على تحقيق ما تريد من كرائم الأغراض

إنى أتمنى أن يقترب اليوم الذى تفرض فيه الدولة على خريجى الجامعة ضرائب فكرية ، اليوم الذى يُقال فيه إن خريجى الجامعة يملكون ثروات لا يملكها أصحاب الملايين ، وإن من الواجب أن تفرض عليهم الضرائب ، لتستطيع الدولة أن تقيم أَوَد المنكوبين بالزهد فى كرائم المعانى

يجب أن يكون من أغراض الجامعيين أن يُطمئنوا الدولة على أن أملها فيهم لم يضع ولن يضيع

إن هذا اليوم قريبٌ قريب ، وسنخلقُه خلقاً إن تأبَّى وامتنع ، وسيعلم الذين آمنوا بجهادنا فنحونا ألقاب الجامعة أن إيمانهم كان الإيمان ، وأنهم سلّموا راية الجامعة إلى جنود هم الرجال

لقد استُضعِفنا حيناً أو أحايين ، والله قد يمُنّ على الذين استضعفوا فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين

ولكن الله على كرمه لا يجود إلا بميزان ، ليعلّم عباده معنى النظام ومعنى العدل ؛ فإن جاز فى وهمنا أن الألقاب الجامعية تُغنى عن الجهاد الموصول فى سبيل المجد ، فقد ضللنا سواء السبيل

هل تفهمون معنى كلمة « ليسانس » وهى أول درجة من الدرجات الجامعية ؟

الليسانس كلمة فرنسية معناها الحرية ، وحرية الجسم لا تتم إلا بسلامة جميع الأعضاء ، وكذلك حرية العقل وحرية الروح ، فلا حرية لعقل تعوزه المواهب ، ولا حرية لروح يعوزه الصفاء .

وأشرح كلمة الليسانس من ثانية فأقول :

الغرض من هذه الكلمة هو إعطاء الطالب راية الحرية ، الحرية من جميع ما قرأ وما سمع ، ليكون من المبدعين

فأين حَمَلة الليسانس من هذا الغرض ؟

إن أعفتهم الدولة من تحقيق هذا الغرض فلن يعفيهم الوطن ، ولن يرحمهم الله الذى علّم آدم فى الفردوس ليكون رسوله إلى ممالك الأرض

إن للجامعة المصرية رسالة تدور حولها من وقت إلى وقت ، وإن كان لها فى أنفسنا صورة لا يتمثلها أبرع فنان ، ولو استوحى نجوم السماء

وتلك الصورة هى سبب شقائى ، وأنا الجامعىُّ المخضرَم الذى

ظفر بألقاب الجامعة القديمة والجامعة الجديدة ، فماذا صنعتُ في دنياى ؟

إن قصائدى ومؤلفاتى ومقالاتى لا توحى إلى نفسى شيئاً من الازدهاء ، لأنى أفهم جيداً أن للنبوغ والعبقرية غاية إنسانية لا غاية محلية ، فأنا لا أقنع بأن يكون الجامعيّ هو المصرى الأول ، وإنما أسمو إلى أن يكون الإنسان الأول ، فاستعدوا للنضال فى ميدان تكونون فيه أوائل الأبطال

لا قيمة للأرقام فى حياة الوجود ، ولن يكون من أسباب ازدهاء الجامعيين أنهم بلغوا بضع ألوف ، فالشمس واحدة والقمر واحد ، وهما عندنا أنفع من النجوم التى تفوق الإحصاء

وأنا من أجل هذا المعنى لا أقيم وزناً للتضامن الجامعي ، لأن التضامن سناد الضعفاء . أعاذنى الله وأعاذكم من وباء الضعف . وهل تتجمّع فى الأرض أمةٌ كما تتجمع أمة النمل ؟

الجامعيّ الحق هو الذى يسير فى كل أرض وفى عقله فكرة الجامعة ، كما يسير المسلم فى كل أرض وفى روحه هَدْىُ المصحف

كونوا آحاداً ، ولا تكونوا جماعات ، فالوحدانية هي العقيدة التى ارتفع بها الشرق ، وبها ارتفع الغرب ، إن كنتم تذكرون طلائع النهضات فى التاريخ

إن الأدب الإسلامي أوصاكم بالتخلق بأخلاق الله ، وأعظم صفات الله هي صفة الوحدانية . ولن يكون للتضامن قيمة إلا إن كان أرقاماً صحاحاً تضاف إلى أرقام صحاح ، وأعيذكم أن تكونوا أصفاراً تزيد قيمة الرقم الصحيح

الصفر وحدَه عَدَم ، ثم تكون له قيمة إن تضامن مع الرقم الموجود ، فماذا تريدون بأنفسكم ، يا أبناء الجامعة فى هذا الجيل ؟

أنا أحب لكم ما أحبُّ لنفسى ، وأنا أكره أن يكون لأىّ مخلوق علىّ سلطان ، فتحرروا من بوارق الدنيا كما تحررتُ ، ليُسبغ الله عليكم نعمة الأدب الرفيع

لا تنشروا بعد اليوم على صفحات الجرائد شكايتكم من قلة الرواتب ، فإن سطراً تكتبونه صادقين هو الرزق النبيل . وذكاء المرء محسوبٌ عليه ، كما قال الأسلاف

العقيدة الأدبية والعلمية هى الأبوّة الكريمة للرجل الحصيف ، فلا تعرّضوا مواهبكم لليُتْم الدميم ... وفى الناس أيتامٌ آباؤهم أحياء !

يجب أن يكون للجامعة فى كل ميدان جنود . يجب أن يكون إليها الرأى فى جميع المعضلات الأدبية والفلسفية والتشريعية والهندسية والطبية والعلمية

ويجب أن يكون الجوع أشرف قوت يقتات به الجامعيون الأصلاء

أترونني أسرف فى الأمانى ؟

إن قلتم هذا القول فإنى أجيب بأنّ ليس فى الخير إسراف

لقد كانت بلادنا أول مشرق للعلوم والآداب والفنون ، وكانت وثباتها العلمية والأدبية والفنية موكولة إلى رجال لا يقيمون وزناً للأقوات ، فكيف نيأس وتأخُّرُنا الماديُّ هو الشاهد على صدق بُنوّتنا لأولئك الآباء ؟

أما بعد فماذا أريد أن أقول ؟

لم أقل شيئاً ، لأنى قلت أشياء ، وبعضُ الإيجاز أبلغ من الإطناب

الهدف الأدبى لهذا الموسم هو أن نخلق للقاهرة شواغل جدية ، بعد أن طال عهدها باستصغار قيمة الوقت ، وبعد أن كان غذاؤها لا يزيد عن اجترار القيل والقال

الهدف الأدبى لهذا الموسم هو أن نُنطق بعض الكليات التى لا تنطق !

الهدف الأدبى لهذا الموسم أن ننقل القاهريين من الاختصام فى التوافه ، إلى الاختصام فى الحقائق

باسم الله نفتتح هذا الموسم ، ولن يتخلّى الله عن بناء كان اسمُه أول ما سطر على حجر الأساس « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

زكى مبارك

حكم فى القضية رقم ٦٥٥ عسكرية المنيا سنة ١٩٤٢ بحبس زكى عبد السلام خليل قماش بالحبس شهرين مع الشغل بجلسة ١٧-٦-١٩٤٢ لبيعه قماشاً بسعر أزيد من التسعيرة .

حكم فى القضية العسكرية رقم ٥٣٦ سنة ١٩٤٢ بجلسة ٣-٦-١٩٤٢ بحبس كولس ابراهيم الدكر صاحب مخبز ببني مزار ثلاثة شهور مع الشغل وغلق المحل خمسة أيام وذلك لبيعه خبزاً بأزيد من التسعيرة .